الفقه في مواجهة الوباء

قراءة لمنطق الفقه الإسلاميّ في التعامل مع الأوبئة

د. محمد حبش
أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة أبو ظبي

واجه العالم كارثة كارونا بذهول صادم، وكان أوضح ما تابعناه خلال هذه المحنة هو قلق التصريحات واضطرابها. وخلال أشهر قليلة، طُرحت عشرات النظريّات عن ولادة الوباء وانتشاره وأساليب تموضعه وتكاثره. ومع أنّ هذه النظريّات طُرحت عبر أكبر هيئات الصحّة في العالم، ولكنّها غرقت في الشكوك وعجزت عن اليقين. وأعبّر لك عن ذهولي وصدمتي بحيرة الطب وعجزه أمام هذا الوباء الجديد، إذ لم أتصوّر أبداً أنّ السلاح الذي ستلجأ إليه الحضارة بكلّ مؤسّساتها الجبّارة هو «خلّيك بالبيت»! على كلّ حال، فإنّ كورونا هي منعطف تاريخيّ هائل ستكون له ظلاله لعقود طويلة وسيستمرّ الجدل فيها طويلاً.

ولكنّ كورونا قدّمت لنا درساً أخلاقيّاً محيّراً تورّطت فيه ثقافات دينيّة في مختلف أنحاء العالم. وخلال الأسابيع الأولى للوباء، كان بإمكانك أن تقرأ على نطاق واسع تحليلات عنصريّة وإقصائيّة تعلّل سقوط الوباء وبطشه بمواقف دينيّة وطائفيّة. وشاهد العالم شيوخاً وقساوسةً وربابين وكهنةً من مختلف الأديان يقدّمون التعليل الانتقاميّ للوباء على أنّه إرادة الخالق وبطشه وانتقامه من الكافرين، وكلّ حسب ديوانه في الإيمان والكفر، وهذا موقف غير أخلاقيّ يقتل روح المقاومة للوباء ويبرّر مصارعه، ويسيء إلى مكانة الخالق الذي بدا وكأنّه ينتقم خبط عشواء. وفي مثال من محيطنا القريب، فقد تمّ التعليل أوّلاً بأنّ الوباء انتقام الله من الشعب الصينيّ الملحد، ثمّ صار بعد شهر انتقاماً من الرافضة ومراقدهم، ولكن بعد شهر واحد صار الحرم الشريف في مكّة هدفاً للوباء وتمّ إغلاق الحرم، وبات كلّ مَن ألقى الاتّهامات يخجل أو يُفترض أن يخجل لهذا التفسير الخرافيّ للتاريخ!

وبالتأكيد فإنّ هذا المنطق الانتقاميّ الذي روّجه بعض رجال الدين خلال الفترة الأولى لانتشار الوباء لا علاقة له أبداً بالأسلوب التربويّ الذي دلّت عليه السنّة الصحيحة من اعتبار الوباء زيادةً في الحسنات وحطّاً عن السيّئات ورفعةً في الدرجات. فهذه الصيغ الثلاث التي تشير إليها نصوص الحديث الشريف لا تعدو كونها أسلوباً تربويّاً إيجابيّاً يدفع المصاب للتعامل مع الوباء بإيجابيّة وعقل، ويحيي فسحة الأمل والرجاء ويعزّز إرادة المصاب ومناعته وشجاعته، وهو من ألف باء الطبّ الوقائيّ الذي يعتمد أساساً على قوّة الإرادة والمناعة.

وفي الواقع فإن الشريعة الإسلاميّة جاءت واضحةً بوجوب بذل الجهد لتحقيق العلاج من كلّ آفة، ومواجهة الأوبئة بسلاح العلم والمعرفة، ومن ذلك قول النبيّ الكريم: «يا عباد الله تداووا فإنّ الله ما أنزل داءً إلّا وأنزل له دواء». وفي القرآن الكريم فإنّ الدواء والشفاء وردا دوماً بمثابة نعم الله الباقية. ويمكننا القول إنّ الله كان دوماً في جانب العافية، والذي هو يطعمني ويسقيني، وإذا مرضت فهو يشفيني، وإنّ المرض امتحان يحتاج المؤمن أن يتغلّب عليه، وليس قدراً بائساً يتعيّن الاستسلام له.

وفي مواجهة الأوبئة، قدّم الرسول الكريم وعياً فريداً ظهر في عدد من نصوص السنّة النبويّة، ومن أوضحها النصّ المشهور: «إذا وقع الوباء بأرض، فلا تدخلوا إليها. وإن كنتم فيها، فلا تخرجوا منها»، وقد رواه البخاريّ ومسلم، وهو يعكس سبقاً مهمّاً في محاصرة الوباء ومنع انتشاره.

ومن العجيب أنّ الرسول الكريم لم يشهد وباءً في زمنه. وقد تمّ استحضارُ هذا النصّ الكريم على يد عمر بن الخطّاب بعد وفاة النبيّ الكريم بنحو ستّ سنين حين كان في طريقه إلى الشام في سرغ (قرب تبوك) وكان طاعون عمواس قد وقع في بيسان بالأردنّ وحصد حياة الآلاف، ومنهم مئات الصحابة الكرام، وكان عمر في طريقه إلى الشام حين بلغه أمر الوباء. وحين أمر بالرجوع، أبلغ أبا عبيدة ذلك. فاعترض أبو عبيدة قائلاً: «أتفرُّ من قضاء قضاه الله؟ فقال: يا أبا عبيدة إنّما نفرّ من قدر الله إلى قدر الله». ثمّ هلك أبو عبيدة بالطاعون، فاستخلف بعده معاذ بن جبل، فلم يلبث أن هلك أيضاً. فاستخلف مكانه عمرو بن العاص، فقام بتطوير الإجراءات بشكل جذريّ. وبدلاً من حصار المدينة المنكوبة، أمر الناس بالتفرّق والتباعد الاجتماعيّ وقال: «إنّ هذا الوباء نار أنتم وقودها فتجبَّلوا». والتجبُّل هو اللجوء إلى الجبال والابتعاد عن الأماكن الموبوءة من دون نقل العدوى إلى بلد آخر.

ومع أنّنا نشير إلى هذا السبق في التعامل مع الأوبئة، إلّا أنّ هذه المقالة ليست بالطبع لتدريس فقه الأوبئة والطبّ من الكتاب والسنّة. وتجدر الإشارة هنا إلى مسألة بالغة الاشتهار وهي مسألة الطبّ النبويّ، التي صارت اليوم وللأسف إحدى مظاهر القعود عن المعرفة والاكتفاء برواية العجائب، ومحاولات بناء الطبّ الحديث على عجائب الماضي هي في رأيي سلوك مضاد لروح

الشريعة ومخالف لهدي رسول الله. وقد أصبح ذلك اليوم أحد أكبر مظاهر الشعبويّة في المعرفة بعد أن تخصّص واعظون كُثُر عبر قنوات متفرّغة لإظهار عجائب الطبّ القديم وأسراره، وما يتضمنّه ذلك تلقائيّاً من التشكيك في المعرفة الحديثة والدعوة إلى الاكتفاء بما ورثناه عن الأجداد بعد إلقاء قدر من القداسة عليه بوصفه طبّاً نبويّاً، وربطه بالتالي بالوحي، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. فإلى أيّ مدى يصحّ هذا الفهم للطبّ النبويّ الكريم؟

من المؤكّد أنّ الرسول الكريم كان بالغ العناية بالصحّة والعافية. فهي جانب من مسؤوليّته في رعاية الأمّة والحرص عليها، وهي صورة لاهتمامه وتحصيله في معرفة النافع والضارّ من الأغذية والأمزجة الطبيعيّة والمركّبة. ولكنّ الطبّ النبويّ ليس أسراراً مقدّسةً جاء بها فريق طبيّ ملائكيّ يحمل عقاقير سماويّةً، مذيّلةً بحجاب معصوم. إنّه، بكلّ بساطة، جزء من كفاح الإنسان في سبيل المعرفة، وجانب من مسؤوليّة النبيّ الكريم في حماية المجتمع وتأمين الصحّة والعافية بالخبرات المتاحة. وهي معرفة تمّ تطويرها وتجديدها مرّات عدّة في حياة النبيّ الكريم نفسه، واستمرّ تطويرها بعد رحيله على يد خبرات طبيّة كبيرة من المسلمين والمسيحيّين، وقدّمت معرفةً طبيّةً مذهلةً في زمانها. وقد تطوّرت على يد مدارس طبيّة شهيرة كآل يوحنا بن ماسويه وآل قسطا بن لوقا وآل حنين بن إسحق وآل الرازي وآل ابن زهر. ولكنّها، وللأسف، تجمّدت في ما بعد عند لحظة من انطفاء العقل، وانصرفت تبحث خلفاً، وذهبنا نلتمس الإعجاز في خبر الغابرين بدلاً من أن نبني كما كانت أوائلنا تبني ونصنع مثلما صنعوا.

النبيّ الكريم حجم واحتجم. ولكنّ الحجامة التي مارسها الرسول لم تكن إلا طبّاً عربيّاً شائعاً ثبت بالتجربة حينذاك أنّه ينشّط الدورة الدمويّة ويساعد الإنسان على التخلّص من بعض فضلاته، ومن هنا فقد مارسها الرسول، وانتفع بها، وليس في الحجامة أسرار مقدّسة أو عجائب ميتافيزيقيّة، ولا هي في صلب رسالته. ومن غير المنطقيّ اليوم أن نسلّط الضوء على عجائب الحجامة، ونختصر العلم النبويّ والطبّ النبويّ بهذا العلاج الشعبيّ العربيّ القديم، بحيث يقال إنّ الغرب أنشأ المدن الطبّيّة في كليفلاند وهامبورغ وليفربول، وطوّر التصوير الطبقيّ والمحوريّ والرنيم المغناطيسيّ، وتمكّن من زرع الكبد والقلب والعين والأعضاء، وفتّت الحصى باللايزر، ونحن حقّقنا الحجامة!!

الطبّ النبويّ من وجهة نظري ليس الحجامة والكيّ والتداوي بحبّة البركة ودبس الرمّان والدهن بالعسل، فهذه الأنواع من الطبّ الشعبيّ كانت أفضل ما عرفه العرب في الحجاز في القرن السابع الميلاديّ. ولكنّ العالم اكتسب بعد ذلك خبراتٍ عظيمةً أسهم فيها علماء عرب ومسلمون. فتطوّر الأداء الطبّيّ خلال القرون تطوّراً مذهلاً، وتمكّن علماء الإسلام ابن سينا والرازي وابن زهر وابن النفيس من استلام طبّ أبقراط وجالينوس وتطوير الطبّ النبويّ للرسول الكريم، وأسلموه بكفاءة واقتدار إلى روجر بيكون ولويس باستور وليستر، وتمكّنوا من استخراج عقار العافية من سمّ الأفعى القاتل. وانطلق الطبّ في ازدهار متسارع، وتمكّن من رسم الخريطة الجينيّة، وبشّر بعالم جديد يمكن فيه استئصال أوبئة بحالها عبر فهم الخريطة الجينيّة للإنسان، وبالتالي عبر حملات طبّيّة وقائيّة منظّمة للقضاء على الوباء.

السواك سنّة نبويّة كريمة، وهي تعبير عن رغبة النبيّ الكريم في تربية المسلم على النظافة والطهارة. فكان يأمر بالسواك عند كلّ وضوء وعند كلّ صلاة وعند كلّ لقاء للناس. ولا شكّ أنّ ذلك يعكس حرص الإسلام على النظافة والطهارة وصحّة الفم. ولكنّ السواك ليس إلّا وسيلةً للطهارة والنظافة. ولم يكن أمر النبيّ الكريم بالاستياك بسبب عروق مقدّسة في عود الأراك، ولا بسبب ارتباط غرقديّ بين الأراك والأمّة المنصورة. لقد كانت المسألة بحثاً عن النظافة والطهارة، وكان السواك هو الآلة المتوافرة آنذاك للتطهير والتعقيم. وحين تتوافر وسائل حديثة من التعقيم والتطهير، فمن المنطقيّ أن يأمر النبيّ الكريم بهذا الجديد. وليس لديّ أدنى شكّ في أنّ النبيّ الكريم سيختار الفرشاة المعقّمة بالفلورايد والمطيّبة بنكهة التفاح، لأنّها ببساطة أكثر طهراً وأقلّ تعرّضاً للأوبئة، ولأنّها حصيلة علم وتجربة وحكمة.

بدون أدنى مبالغة، فإنّ ثقافةً كهذه لا بدّ من أن تشجّع كلّ تجديد علميّ ونشاط معرفيّ. ولا بدّ من أن تكون مع الجديد والمفيد من المعارف العلميّة والطبّيّة، وأن توفّر للناس ما يحتاجونه من الحكمة والمعرفة. السياق الطبيعيّ للتوجيه النبويّ الخالد «يا عباد الله تداووا، فإنّ الله ما أنزل داءً إلّا وأنزل له دواء» يقتضي متابعة كلّ خبرة جديدة في الطب لتحقيق ذلك، والبحث عن الحلول العلميّة لمواجهة الأوبئة كما تقدّمها أحدث المخابر وأرقى الجامعات، وليس العودة إلى نصوص التراث والتحقيق في أسانيد الرواية عن فضل العسل وحبّة البركة وغيرها من فنون الطبّ القديم التي باتت

أعجز من أن تواجه صنوف الوباء المتكاثرة كل يوم. وإلّا فأين تجد في كتب الطبّ النبويّ علاج الشيزوفرانيا والباركنسون والسفلس والسيدا والشيخوخة المبكرة وترقّق العظام وتليّف الكبد والصمة الرئويّة واضطرابات التخثّر وتناذر غود باستور والالتهاب الغضروفيّ وداء تايتز والفتوق الشرسوفيّة والفتق السبيجليّ وآلاف الأمراض والأوبئة التي لم تكن موصوفةً أصلاً في عصر النبوّة؟ وهل يمكن التماس أجوبة عن ذلك من خلال ما دوّنه الأقدمون من الروايات؟ إنّ روح المنطق النبويّ في التعامل مع الوباء هو تشجيع العلم وليس تقديم الوصفات الطبّيّة. فالعلم هو مَن يصنع الدواء، والدين هو من يمنح الأمل. والعلم هو مَن يجري التجارب، والدين هو مَن يمنح الرضا والطمأنينة. ولو عهدنا بالعلم إلى المعابد وبالموعظة إلى المخابر، لضيّعنا العافية والأمل، وبذلك نكون قد ارتكبنا أسوأ الخطايا بحقّ الدين وبحقّ المعرفة.